# دار الخلافة العباسية

« تعيين موضعها وأشهر مبانيها »

الدكتور مصطفى جواد

يراد بدار الخلافة العباسية منذ أواخر القرن الثالث للهجرة البقعة الشرقية من بغداد التي كانت فيها قصور الخلفاء العباسيين ودورهم ومجالسهم ودواوين دولتهم ومخازنها ، وبساتينهم وحدائقهم ، ودور رجال دولتهم المقربين ومماليكهم الأدنين . وكان فيها أبنية أخرى لمصالح أخر ومحلات لأرباب الجاه والثراء والتجار الأغنياء وأصحاب الأملاك ، فهي دار بالاسم ومدينة في الحقيقة . قال هلال بن المحسن ابن الصابي :

« كان عضد الدولة البويهي عند قدومه إلى الحضرة في سنة أربع وستين وثلاثمائة ... أحب أن يشاهد دار الخلافة ويستقري أبنيتها ومجالسها ودورها وصحونها ودواخلها وغوامضها ، فصار اليها وطافها موضعاً موضعاً ، وبين يديه مؤنس الحاجب ، يريه شيئاً شيئاً ، ويعرفه مكاناً مكاناً حتى انتهى إلى دار السر المرسومة بالحُرَم وقف مؤنس فقال له عضد الدولة : ارجع بنا عنه . وتجاوزَهُ ولم يدخله [1] . قال : وكانت داراً عظيمة السعة وعلى أضعاف ما هي عليه الآن من هذه البقية الرائعة ودليل ذلك أنها كانت متصلة

---

(١) رسوم دار الخلافة . تحقيق الباحث ميخائيل عواد « ص ٨٧ » .

بالخير والثريا ، ومسافة ما بينهما اليوم بعيدة ، وإنما انفصلا عنها وطال مداها منها بما أتى عليه الحريق والهدم من الدور والمنازل والبنيان والعمران في الفتنة عند خلع المقتدر بالله ـ ص ـ وعوده والقبض على القاهر بالله ، وقتل المكنى أبا الهيجاء ابن حمدان وما بعدها من الفتن المترادفة بالأيدي المتخالفة فان ذلك استهلك الشطر الأكبر منها ، ومن بعض أمورها أنه كان فيها مزارع وأكرة ـ يعني الزراع ـ وعوامل ـ يعني البهائم التي يستقى عليها ـ برسمها وأربعائة حمام لمن تحويه من أهلها وحواشيها .. » [1] .

وقال الخطيب البغدادي : « حدثني هلال بن المحسن قال حدثني أبو نصر خواشاذه خازن عضد الدولة بن بويه قال : طفت دار الخلافة عامرها وخرابها وحريمها وما يجاورها ويتاخمها فكان ذلك مثل مدينة شيراز . وسمعت هذا القول من جماعة آخرين عارفين خبيرين » [2] .

وقال ابن جبير في وصف بغداد : « وأما الشرقية فهي اليوم دار الخلافة وكفاها بذلك شرفاً واحتفالاً ، ودور الخلافة مع آخرها ، وهي تقع منها في نحو الربع أو أزيد ، لأن جميع العباسيين في تلك الديار ، معتقلين [3] اعتقالاً جميلاً ، لا يخرجون ولا يظهرون ، ولهم المرتبات القائمة بهم ، وللخليفة من تلك الديار جزء كبير قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائعة والبساتين الأنيقة » [4] .

أستطيع أن آتي بنصوص أخرى في وصف دار الخلافة العباسية ولكن المهم هو تعيين موضعها من بغداد الحالية ، فأعسر الأمور في خطط بغداد هو معرفة أسمائها ومواضعها ومواقعها معاً ، لأن الأسماء تغيرت والأنهار اندفنت ، والمباني اندثرت ، والحدود زالت ، وصار الناس يحسبون أن الجانب الشرقي هو محلة الرصافة [5] ، وأن الجانب الغربي هو

---

(١) المرجع المذكور « ص ٧ ٠ » .
(٢) تاريخ بغداد « ١ : ١٠٠ » .
(٣) رحلة ابن جبير (ص٢٢٦ـ٢٢٧) .
(٤) معتقلين حال من صاحب الخبر « في تلك الديار »
(٥) محلة الرصافة حافلة التاريخ من حيث حوادثها وخططها وسأفرد لها بحثاً مفصلا .

الكرخ مع ان الرصافة كانت محلة عليها سور وكانت قرب قبر الامام ابي حنيفة ـ رضي ـ من جهة الجنوب ، وأنّ الكرخ كان محلة مسورة بالجانب الغربي في موضع الشالجية وما يليه من الشرق ، ونجد جماعة من الناس يفتاتون على التحقيق العلمي فيسمون المواضع والمحلات والمشاهد والمساجد كيفما شاؤوا ، من غير علم ولا تحقيق ، ويظنون أن قراءتهم للتواريخ وعنايتهم بها تبيحهم أن يتكلموا في علم الخطط فوزعوا الأسماء على حسب الأهواء لا على صحيح الأنباء وتحقيق الألباء .

والبحث في خطط بغداد التطبيقي ينبغي أن يعتمد على ركائز قائمة ومنها تبدأ حركة التعيين ، فلها في الجانب الغربي قبر الامام موسى بن جعفر ـ ع ـ وتربة الشيخ معروف الكرخي ـ رضي ـ ومشهد المنطقة المسمى اليوم بجامع براثا ، ومسجد قمرية وتربة الشيخ صندل المنسوبة إليه محلة الشيخ صندل ، وركائز البحث في الجانب الشرقي قبر الامام أبي حنيفة ـ رضي ـ وقبر أم رابعة شاه لبنى الأيوبية ، والمدرسة المستنصرية ، وجامع الخفافين المجاور لها من الجنوب ، وتربة الشيخ عبد القادر الجيلي المعروف بالكيلاني وجامع الخليفة المعروف بجامع سوق الغزل ، ومواضع وقطع من سور شرقي بغداد قلت بالهدم أخيراً ، فاذا قال لنا القائل كيف استدللتم على أن هذا الجانب الشرقي من بغداد العتيقة غير الرصافة ؟ قلنا : قال ياقوت الحموي في مادة الرصافة من معجم البلدان : « رصافة بغداد بالجانب الشرقي ، لما بنى المنصور مدينته بالجانب الغربي واستتم بناءها أمر ابنه المهدي أن يعسكر في الجانب الشرقي وأن يبني له فيه دوراً ، وجعلها معسكراً له ، فالتحق بها الناس وعمروها فصارت مقدار مدينة المنصور ، وعمل المهدي بها جامعاً أكبر من جامع المنصور وأحسن ، وخربت تلك النواحي كلها ، ولم يبق إلا الجامع ويلصقه مقابر الخلفاء لبني العباس وعليهم وقوف ـ أي أوقاف ـ وفراشون برسم الخدمة ولو لا ذلك لخربت ويلصقها محلة أبي حنيفة الإمام وبها قبره ، وهناك محلة وسويق وتلاصقها دار الروم ، لم يبق شيء غير

هذا .. » فالموضع الملاصق محلة الإمام أبي حنيفة ـ رضي ـ لا يمكن أن يكون منها على مسافة أكثر من كيلو مترين كشرقي بغداد العتيقة الحاليّ ، إذن كيف تعيّن موضع دار الخلافة ولم يبق من بنيانهـــا شيء ولا من مرافقها أثر ؟ نعينها باتخاذ المدرسة المستنصرية ركيزة للتعيين ، قال ابن أبي الحديد عبد الحميد شارح نهج البلاغة في ذكر المستنصرية :

مخيمة على نهر المعـــلى فدجلة لا المنيفة فالضمار

فالمستنصرية مخيمة على نهر المعلى المستمد ماءه من نهر موسى ، المستمد ماءه من نهر بين ، المستمد ماءه من النهروان فوق الجسر أعني فوق بلدة جســـر بوران التي كانت على النهروان على مقربة مما يسمى بكاسل بوست الآن .

وقال الخطيب البغدادي في وصف دار الخلافة راوياً عن غيره : « كانت دار الخلافة التي على شاطيء دجلة تحت نهر المعـــلى قديماً للحسن بن سهل وتسمى القصر الحسني » [1] . فالمستنصرية كانت توصف بأنها مخيمة على نهر المعلى ودار الخلافة كانت على شاطيء دجلة تحت نهر المعلى ، فهي تحت المستنصرية بالتحقيق ، فينبغي تحديد هذا « التحت » أقريب هو أم بعيد ؟ قال أبو الفداء في تاريخه في الكلام على سيرة الخليفة المستنصر بالله : « وهو الذي بنى المدرسة ببغداد المسماة بالمستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة » [2] . وهـذا قول جمال الدين محمد بن واصل الحموي المؤرخ الفيلسوف في كتابه « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » وقد طبع منه ثلاثة أجزاء ولم يصل الطبع إلى هذا القول ، قال في سيرة المستنصر « وعمرت البـلاد في أيام المستنصر بالله رحمه الله عمارة عظيمة ، وأثر فيها الآثار الجميلة من ذلك أنه بنى على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة مدرسة سميت بالمستنصريـة لم يبن على وجه الأرض مدرسة أحسن منها ولا أكثر وقفاً » [3] .

---

(١) تاريخ بغداد « ص ٩٩ » . (٢) المختصر في أخبار البشر « ٣ : ١٧٩ » .
(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٧٠٣ و ٤٠ » .

وبما قدمنا علمنا أن دار الخلافة كانت على مقربة من المدرسة المستنصرية من الجنوب بحيث كان موضعها يلي دار الخلافة أي يقرب جداً منها ، وهذا الفعل « يلي » يستعمل كثيراً لبيان القرب الذي هو دون الملاصقة ، قال أبو الفرج بن الجوزي في ذكر زوارق جاءت في دجلة : « فربطت فيما يلي باب المدرسة »[1] . وهذا القرب يقاس بهذا الفعل حين لا تكون المسافة مقيسة بمقاييس الطول القديمة المعروفة ، وحين لايكون قياسها ذا فائدة توجب ذكره .

فهذه هي الطريقة العلمية في تعيين المواضع العمرانية التي ذهب عمرانها وزالت آثارها ، وخفيت معالمها كدار الخلافة العباسية الأخيرة ، وقد علمنا بما نقلنا من النصوص الجغرافية التاريخية أنها كانت على مقربة من المدرسة المستنصرية من جهة الجنوب ، وقد ذكرنا أنها كانت ذا سعة قدّرها ابن جبير بأكثر من ربع الجانب الشرقي ، وقال ياقوت الحموي في مادة « الحريم » من معجم البلدان : « حريم دار الخلافة ببغداد ، ويكون بمقدار ثلث بغداد ، وهو في وسطها ودور العامة محيطة به وله سور يتميز ، ابتداؤه من دجلة وانتهاؤه إلى دجلة كهيأة نصف دائرة ، وله عدة أبواب ، أولها من جهة الغرب باب الغربة وهو قرب دجلة جداً ثم باب سوق التمر وهو باب شاهق البناء أغلق في أول أيام الناصر لدين الله ابن المستضي ، واستمر غلقه إلى هذه الغاية ثم باب البدرية ثم باب النُّوبي وعنده العتبة التي تقبلها الرسل والملوك إذا قدموا بغداد ، ثم باب العامة وهو باب عمورية أيضاً ثم يمتد [ السور ] قرابة ميل ليس فيه باب إلا باب البستان قرب المنظرة التي تنحر تحتها الضحايا ثم باب المراتب ، بينه وبين دجلة نحو غلوتي سهم في شرقي الحريم ، وجميع ما يشتمل عليه هذا السور من دور العامة ومحالها وجامع القصر ، وهو الذي تقام فيه الجمعة ببغداد ، يسمى الحريم ، وبين هذا الحريم المشتمل على منازل الرعية وخاص دور الخلافة التي لا يشركه فيه

(١) المنتظم « ١٠ : ١٠٢ » يعني باب المدرسة النظامية .

أحد سور آخر يشتمل على دور الخلافة وبساتين ومنازل نحو مدينة كبيرة »[1] .

وأعاد ياقوت كلامه على حريم دار الخلافة في كتابه : المشترك وضعا المختلف صقعا ، وزاد شيئاً في بعض المواضع منه قال : « الحريم بفتح الحاء وكسر الراء وياء ساكنة ، الأول حريم دار الخلافة ببغداد وهو مقدار ثلث مدينة السلام بغداد وعليه سور من دجلة إلى دجلة كهيأة الهلال أو نصف دائرة ، وله أبواب أولها باب الغربة على دجلة ثم باب سوق التمر : باب شاهق البناء ، وأغلق في أول أيام الناصر ، واستمر غلقه إلى الآن [ يعني سنة ٦٢٦ ] ثم باب البدرية ثم باب النوبي وفيه العتبة التي تقبلها الرسل ، والملوك إذا قدموا بغداد ثم باب العامة ويقال له أيضاً باب عمورية وبين هذين البابين محال يسكنها عامة الناس بينهم وبين دار الخلافة سور آخر فيه عدة أبواب منها باب الدوامات وباب علّيان وباب الحرَم وغير ذلك ثم يمتد نحو ميل لا باب فيه إلا باب بستان في آخر المأمونية تحت المنظرة التي تنحر تحتها الضحايا في الأعياد ثم باب المراتب بينه وبين دجلة من جهة باب الأزج نحو رميتي سهم ، وجميع ما يشتمل عليه هذا السور يسمى حريم دار الخلافة فيه محال وأسواق وخانقاهات ـ يعني ربط الصوفية أي تكياتهم ـ ودور كثيرة للرعية كأكبر مدينة ، وبين منازل الرعية وبين دجلة سور آخر من دون دور الخلافة لا يشركه فيه شيء من منازل غيره ، وإنما بسطنا القول في هذا وذكرناه لكثرة ما يجيء ذكره في التواريخ والأخبار وربما نسب إليه بعض الرواة[2] » .

وذكر شمس الدين الذهبي في كتابه المشتبه في أسماء الرجال في الحريمي حريم دار الخلافة في نسب الحريمي وذكر « باب النصر » مكان باب البستان وهذه التسمية أطلقها على هذا الباب الخليفة المسترشد بالله باعث النهضة الأخيرة في الدولة العباسية ، أطلقها تقليداً

(١) معجم البلدان في مادة « حريم » .

(٢) المشترك وضعاً المختلف صقعاً في مادة « حريم » . ونسي هنا ياقوت « باب الخاصة » وذكره في مادته من المعجم المذكور .

للفاطميين في تسميتهم أحد أبواب القاهرة « باب النصر » ، كما قلد المنصور هشام بن عبد الملك في تسمية مقر المهدي في الجانب الشرقي بالرصافة ، فلهشام رصافة في بلاد الشام كما هو معروف مشهور . ولم يذكر أحد قبلنا سبب اختيار المنصور اسم الرصافة .

إن وصف سور الحريم المذكور بالهلال ونصف الدائرة يقرب من أذهاننا شكله ، ولا بد للسور في أصول العمارة القديمة الزمان من مساحة كالساحة تفصل بينه وبين غيره تمهيداً للدفاع في يوم الهجوم والقراع ، وهذا الفاصل قد زال واتخذ دوراً ومنازل ومرافق أخرى كالدكاكين والأسواق وكان ذلك بعد زوال دولة بني العباس ، فلذلك يصعب علينا تحديده فضلا عن تعيينه إلا أن جامع القصر الذي هو جامع سوق الغزل يكون في نقطة هندسية من نقاطه الشرقية من غير شك ، والظاهر أنها أبعد نقطة من الشرق .

وأصح الشوارع مطابقة لمبدأ سور دار الخلافة الكبير هو شارع السموءل الممتد من شارع الرشيد والمنتهي إلى المشرعة عند قهوة الشط ، وفي هذا الشارع ينبغي أن يُظن وجود الأبواب العليا قديماً أعني أبواب السور ، وأولها باب الغربة ، نسبة إلى شجرة غرب كانت مغروسة عنده في أول انشائه ، وهو مطابق لباب شارع المستنصر الحالي ، المسمى قبل عدة سنوات ، بشارع النهر . ولقائل أن يقول: ولماذا لا تعد سوق البزازين الكبيرة القريبة من شارع السمؤال الموازية له تقريباً ، الشارع أو الدرب المحاذي لسور دار الخلافة ؟ والجواب أن هذه السوق كانت من أقسام سوق الثلاثاء ببغداد ، قال ابن بطوطة في رحلته في ذكر الجانب الشرقي من بغداد ، وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق تعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيها على حدة ، وفي وسط هذه السوق المدرسة النظامية العجيبة ، التي صارت الأمثال تضرب بحسنها ، وفي آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر [1] » . نخط سور

(١) تحفة النظار في غرائب الامصار ( ١ : ١٢١ ) .

دار الخلافة يبدأ إذن من آخر شارع السمؤال المفضي إلى شط دجلة ويمتد شرقاً على خط نصف دائرة ، على التقريب حتى ينتهي في الجنوب عند شط دجلة أيضاً ، كما يستخلص من النصوص التي آثرناها وأثرناها . ولكن كيف نعين موضعه في الجنوب ؟ نعينه بذكر باب قديم العهد من أبواب دار الخلافة هو « باب الخاصة » الجديد [1] ، قال ياقوت في معجم البلدان : « باب الخاصة كان أحد أبواب دار الخلافة المعظمة ببغداد أحدثه الطائع لله تجاه دار الفيل وباب كلواذا ، واتخذ عليه منظرة تشرف على دار الفيل وبراح واسع واتفق أن كان يوماً في هذه المنظرة وجوّزت عليه جنازة ... الزاهد المعروف بغلام الخلال فرأى الطائع منها ما أعجبه فتقدم أي أمر بدفنه في ذلك البراح الذي تجـــاه المنظرة وجعل دار الفيل وقفاً عليـه ووسع به في تلك المقبرة وهي الآن على ذلك إلا أن هذا الباب لا أثر له اليوم ، ويتلو هذا الباب من دار الخلافة باب المراتب ولهذه الأبواب ذكر في التواريخ .

فالزاهد المعروف بغلام الخلال هو الخلاّلي ، وقد دفن كما مر في النص في البراح المقابل لباب الخاصة المذكور ، وبه نعلم تقدير المسافة بين سور دار الخلافة من الجانب الشرقي وقبر الشيخ الخلاّلي ، وقولي « باب الخاصة القديم » لأن باب البدرية المتقدم ذكره آنفاً كان يسمى في أيام المعتضد بالله « باب الخاصة » ثم نسب الى بدر احد الامراء المماليك فقيل باب بدر ثم قيل باب البدرية من أجل المحلة المنشأة حياله ، ولعله بدر المعتضدي والظاهر أن الشعب هو الذي سماه بذلك الاسم فغلبت تسمية الشعب على غيرها .

فسور دار الخلافة من جهة الجنوب كان يصل إلى محلة المربعة ولا يتجاوز محلة رأس الساقية ، وفيها اليوم الشارع الممتد من شارع الرشيد إلى تربة الشيخ الزاهد عبد القادر الجيلي ، ويؤيد ما قلت ما ذكره ابن جبير في تعيين الموضع الذي رأى فيه أبا الفرج بن الجوزي يعظ الناس فيه ، قال : « ثم شاهدنا صبيحة السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه

---

(١) قلت ذلك لئلا يلتبس بباب الخاصة العتيق ، وهو باب بدر ، تراجع « منظرة الريحانيين » من معجم البلدان ، والمراصد ، وكان في أعلى دار الخلافة العباســـية ، يراجع كتاب « رسوم دار الخلافة ص ٧٦ » لتصحيح التعليق .

الامام الأوحـــد جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي بازاء داره ، على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره ، على اتصال من قصور الخليفة ، وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي [1] . فباب البصلية هو باب كلواذا آخر أبواب بغداد الشرقية من جهة الجنوب الشرقي وهو اليوم الباب الشرقي .

وتسأل بعد ذلك ما كان داخل سور دار الخلافة الصغير القائم وراء سورها الكبير المحيط بدور الخلفاء ومجالسهم ومرافقها ومنازهها ؟ ذكرنا آنفاً قول الخطيب البغدادي : « كانت دار الخلافة التي على شاطىء دجلة تحت نهر المعلى قديماً للحسن بن سهل » وزير المأمون وحميه أي والد زوجه السيدة خديجة بوران ، وذكر بعد ذلك أنها تسمى أي الدار ( القصر الحسني ) فلما توفي الحسن بن سهل صارت الدار لابنته بوران فاستنزلها عنها الخليفة المعتمد على الله قبل ســـنة ٢٧٩ فاستنظرته أياماً لتفريغها وتسليمها ثم رممتها وعمرتها وجصصتها وبيضتها وفرشتها بأجل الفرش وأحسنه وعلقت أصناف الستور على أبوابها وملأت خزائنها بكل ما يصلح للخلفاء ، ورتبت فيها من الخدم والجواري ما تدعو الحاجة اليه ، فلما فرغت من ذلك انتقلت من الدار وأرسلت إلى المعتمد على الله تدعوه إلى الانتقال اليها ، فانتقل وبهذا الانتقال تركت عاصمة الدولة سامرا و نقلت الخلافة إلى بغداد واتخذت عاصمة كما كانت في أيام المنصور ومن بعده من الخلفاء حتى عهد المعتصم بالله المنتقل إلى سامراء .

ولما ولي الخلافة المعتضد بالله اســـتضاف إلى تلك الدار مما جاورها كل بقعة توسعها وتكبرها ، وبنى عليها سوراً جمعها به وحصنها وتولى الخلافة بعده ابنه المكتفي بالله فبنى قصر التاج على دجلة وأنشأ عنـــده قبابا ومجالس تناهى في توسعتها وتعليتها ، واستخلف المقتدر بالله فزاد في ذلك بما أنشأه واستحدثه من البنيان [2] » .

---

(١) رحلة ابن جبير ( ص ٢٢٠ ) .

(٢) تاريخ بغداد ( ١ : ٩٩ ) .

لم يذكر المؤرخون أوصاف البنيان ، بحيث يستفيد من وصفهم أبناء هذا الزمان ، فالتاج العظيم لم نعلم من وصفه إلا ما ذكره ياقوت من أن وجهه ـ ولا تقل واجهته ـ كان مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشر أساطين بخمسة أذرع ، وفي أيام المقتفي لأمر الله في أواسط القرن السادس وقعت صاعقة عليها فتأججت فيها ، وفي قبة الحمار التي كان يصعد اليها في مدرج على حمار صغير ، وكانت عالية على شكل نصف دائرة ، وشبت النار في الدار التي فيها القبة وبقيت النار تستعر تسعة أيام ثم أطفئت ، وقد صيرت القصر كالفحمة ثم أعاد المقتفي البناء على الصورة الأولى ولكن بالجص والآجر أي الطابوق بغير أساطين رخام وأهمل إتمامه حتى مات وبقي كذلك إلى عهد المستضيء بأمر الله فأمر بنقضه وإبراز المسناة التي بين يديه حتى تحاذي مسناة التاج فشق الأساس ووضع البناء على خط مستقيم من مسناة التاج واستعملت أنقاض التاج مع ما كان أعد من الآلات في عمل هذه المسناة ، وأنشيء هنالك صحن وهو الصحن الذي يبايع الناس فيه الخلفاء في العادة[1] .

ومن أشهر المباني في دار الخلافة « دار السيدة بنفشة » حظية الخليفة المستضيء بأمر الله وكانت في موضع خان الدامرجي ، وما حوله وكانت تشرف على شط دجلة وكانت تسمى أيضاً « دار سوق التمر » قال صفي الدين عبد المؤمن البغدادي في مراصد الاطلاع : « دار سوق التمر هي الدار المتصلة بباب الغربة ومن الجهة الأخرى بالبدرية وهي دار عظيمة من دار الخلافة مشرفة على مشرعة الابريين لها باب عال ودركاه في صدر المخلطيين » وقال تاج الدين ابن الساعي : « بنى الامام المستضيء ، بأمر الله للسيدة بنفشة داراً مجاورة لباب الغربة الشريف على شاطىء دجلة فجاءت عالية البناء واسعة الفناء تشتمل على مقاصير وحجرات ومناظر ومتنزهات ، ويجاور هذه الدار أربعة دواليب تستقي الماء من دجلة الى دار الخلافة المعظمة كل واحد أعلى من الآخر ، فيأخذ الأول من دجلة والثاني من الأول

(١) تاريخ بغداد ( ١ : ٩٩ ) .

والثالث من الثاني والرابع من الثالث »[1] .

وكان في دار الخلافة قصر الفردوس الذي أنشأه المعتضد بالله ودار الشجرة المعلومة الأخبار ، وخان الخيل وهو دار أكثرها أروقة بأساطين رخام ، ودار السباع ، والجوسق المحدث ، وهو دار بين بساتين في وسطها بركة رصاص قلعي ، حواليها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضة المجلوة ، طول البركة ثلاثون ذراعاً في عشرين ذراعاً ، وكان فيها الدار المربعة ، والدار المثمنة التي قعد فيها هولاكو في احتلاله بغداد ، لما رغب في أن يرى دار الخلافة ، وقد صحفتها التواريخ الفارسية الى « دار الميمنة » مع أنهـا المثمنة أي الثمانية الجدران ذكر ذلك الخطيب البغدادي وياقوت الحموي ورشيد الدين .

وكان فيها دار الفلك أنشأها الخليفة الناصر لدين الله رباطا للنساء العابدات سنة ٥٨٦ ورتب فيها رئيسة للزاهدات ابنة الأمير السيد العلّويّ الملقبة بست الخدور[2] . ولم نقف على صريح اسمها فيما وقع إلينا من التواريخ ، وأبوها فقيه علويّ حنفيّ مشهور .

وبعد أن ذكرنا موجز أخبار التأسيس لدار الخلافة العباسيّة نقلاً من تاريخ الخطيب ، نذكر أخبار التأسيس مفصلة أكثر مما ذكره ياقوت الحمويّ منهـا في كلامه على « التاج » قصر المكتفي في معجم البلدان ، وهذا التفصيل وجدناه في بعض تواريخ المؤرخ الكبير تاج الدين علي بن أنجب ابن الساعي ، حيث ذكر سيرة السيدة خديجة بوران بنت الحسن ابن سهل إحدى زوجات المأمون ، قال :

« وذكر عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر أنّ بوران توفيت يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وسبعين ومائتين وقد بلغت من السن ثمانين سنة . قلت : وكانت وفاتها ببغداد لأنها كانت تسكن بالقصر الحسني المنسوب إلى أبيها الحسن بن سهل ،

---

(١) وفيات الأئمة الخلفاء من الخراز والاماء ( طبعة دار المعارف ص ١١٣ ) .

(٢) مرآة الزمان « ٨/٢٠١ ) .

وهذا القصر كان أولاً يسمى (القصر الجعفري) نسبة إلى جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، وهو أول بناء وضع في قديم الزمان بمدينة السلام [1] . أخبرني أبو القاسم علي بن عبدالرحمن بن علي [ ابن الجوزي ] إذناً عن أبي محمد عبد الله بن الخشاب النحوي قال حدثنا أبو القاسم الربعي أخبرنا أقضى القضاة أبو الحسن الماوردي أخبرنا أبو علي الأزدي قال حدثنا أبو جز ( كذا ) قال حدثنا أبو العيناء قال : كان جعفر بن يحيى البرمكي شديد الشغف بالاخوان ، كثير المحبة للقيان ، قد أعطى اللذات قياده ، وجعل مواسم القصف واللهو أعياده ، وكثر ذلك منه ، واشتهر عنه ، وتكلم الأعداء فيه بسببه ، فخلا به والده وأنكر عليه فعله وقال له : إذا لم يكن لك قدرة على الاستتار في لهوك وشربك ، والكتم لمجالس أنسك ولعبك ، فاتخذ لنفسك قصراً بالجانب الشرقيّ ، تجمع فيه ندماءك وقيانك ، وتقطع معهم زمانك ، وتبعد عن أعين العامّة ، وتخفي أمورك على أكثر الخاصة ، ويقل القول فيك ، وينقطع الكلام عنك ، ويكون أصلح لشأنك عند سلطانك . فعمد جعفر الى الجانب الشرقيّ واتخذ به قصراً شيّد بناءه ، وأوسع فناءه وفضاءه ، واتخذ فيه بستاناً ذا رياض مخصبة مريعة ، وغرس به من أنواع الشجر ما يثمر بكل ثمرة بديعة ، وبالغ في إنفاق الأموال ، وجمع الصناع والرجال ، فلما قارب الفراغ من بنائه ، صار إليه ومعه أصحابه وفيهم مؤنس بن عمران ، وكان حافلاً لبيباً كاملاً فطاب به واستحسنه ، وقال من حضر من أصحابه في ذلك فأكثروا القول ، ومؤنس ساكت ، فقال له جعفر : مالك لا تتكلم ؟ قال : فيماذا ؟ قال : فيما قال أصحابنا . قال : كفاني قولهم ولا زيادة فيه ، وكان جعفر ذكياً ، فعلم أن تحت قول مؤنس معنىً ، فقال : وأنت أيضاً فقل ، قال : هو ما قالوا ، قال [ جعفر ] : أقسمت عليك لتقولنّ . فقال له : إذ أبيت إلا أن أقول أفتصبر على الحق ؟ قال : نعم . قال : أريد خلوة . فلما خلا به قال : أأطيل فيما أقول أم أختصر ؟ قال :

(١) لعله أراد « أول بناء في أسفل الجانب الشرقي من مدينة السلام بغداد » .

بل اختصر. قال : أسألك إن خرجت الساعة فررتَ بدار لبعض اصحابك تُشبه دارك هذه أو تقاربها ما كنت صانعاً وقائلاً ؟ قال : قد فهمت ، فما الرأي ؟ قال : هو رأي إن أخرته عن ساعتك هذه فات قال : وما هو ؟ قال : لست أشك في أنّ أمير المؤمنين قد طلبك وسأل عن خبرك فُخبِّر أنك قد ركبت إلى قصرك ، فضجر من تأخرك ، فأطِل اللبث هاهنا ثم امض إليه من فورك ، وعليك أثر الغبار ، فاذا سألك عن حالك ، فقل : صِرتُ إلى القصر الذي بنيته للمأمون . ثم أتبع ذلك من القول بما أنت أعلم به . وكان جعفر قد اتخذ في هذا القصر ثلاث مئة وستين مرفقاً ما بين مجلس ومستشرف وحجرة وخيش وخزانة ، وكتبت إلى كل ناحية بأن تُتخذ لكل مقصورة فرش على مقادير أبنيتها ، وكان القول قد كثر جداً في ذلك البناء وما كتب في استعماله من الفرش له ، فأقام جعفر في القصر هُنيأة ثم مضى من فوره فدخل على الرشيد ، فسأله [ الرشيد ] عن خبره ومن أين جاء ؟ قال : كنت في القصر الذي اتخذته لمولاي المأمون بالجانب الشرقي على دجلة . فقال له الرشيد : أو للمأمون بنيته ؟ قال : نعم ، فانك يا أمير المؤمنين في ليلة ولادته شرّفتني بأن جعلته في حجري قبل جعله في حجرك واستخدمتني له ، وعرفت محله من قلبك فدعاني ذلك إلى أن اتخذت له هذا القصر بالجانب الشرقي في موضع معتدل الهواء ، طيب الثّراء ، ما بين رياض زاهرة ، ومياه جارية ، بعيداً من أصوات الناس والدخاخين المؤذية ، والرّوائح المنتنة ، ليتسكنه حواضنه ودایاته ، وجواريه وقهرماناته ، فيصح بذلك مزاجه ، ويتمّ نشوؤه ، ويصفو ذهنه ، ويذكو قلبه ، وينمو لبه ، ويضيء فهمه ، ويحسن لونه ، ويزيد جسمه ، ومع ذلك فانني قد كتبت إلى النواحي جميعاً باتخاذ فرش لهذا البناء على مقاديره ، وبقي شيء لم يتهيأ اتخاذه إلى الآن ، وقد عوّلنا على خزائن أمير المؤمنين ، إمّا عارية أو هبة . قال : بل هبة . وأسفر إليه ، وأقبل وجهه عليه ، وقال : أبى [ الله ] أن يقال عنك إلا ماهو لك ، وأن يُطعن فيك ، إلا بما يرفعك ويعليك ، والله لاسكنه أحد لاسوالك ، ولا

تتم ما يعوزه من المفارش إلا من خزائننا . وزال من نفس الرشيد بتلك الفعلة ما كان حمل عليه من السعايات ، وظفر بالقصر ، وانقطعت الأقاويل عنه . ولم يزل جعفر يتردد إليه في كل أوقات أفراحه ، إلى حين واقعتهم ، وانقضاء دولتهم ، وإلى حينئذ كان يسمى ( القصر الجعفريّ ) » .

وقال ابن الساعي بعد ذلك :

ذكر انتقال هذا القصر وكيف صار إلى المأمون وما أضاف اليه من الأبنية .

ذكر بعضهم أنّ هذا القصر صار إلى المأمون، وكان من أكمل القصور وأبهاها ، وأحب المواضع اليه وأشهاها ، لاطلاله على دجلة وكماله في النظر ، واشتماله بالعروض والشجر ، واكتسائه بالنور المشرق الناثر ، والزهر المؤنق الزاهر ، فنزل بساحته ، وحلّ به حي راحته ، وجرّ على رياضه ذيوله ، وطارد في ميدان سروره خيوله ، ملتذاً بسكناه ، معتداً بهواه ، وصار منزل صيده وقنصه ، ومحلّ نزهه وفُرصه ، واقتطع جملة من البرية ، فعملت ميداناً لركض الغلمان ، واللعب بالكرة والصولجان ، وحيراً لجمع الوحوش في أوقات تصيده ، وفتح له باباً شرقياً إلى جانب البر ، واتخذ على أعلاه منظرة تشرف على مرام واسعة ، لمن عساه يصل من طريق خراسان ، ونواحي همذان وأذربيجان ، وأجرى على ذلك الباب نهراً ساقه من نهر المعلى ، وابتنى عليه وقريباً منه منازل برسم خاصته ، وأصحابه وحاشيته ، سميت المأمونية وهي الآن محلة الشارع الأعظم [1] فيما بين عقدي المصطنع والزيادين » .

وعنون ابن الساعي بعد هذا كلامه بما يلي السطر :

« ذكر انتقال هذا القصر إلى الحسن بن سهل واشتهاره به وما زاد فيه من الأبنية

---

(١) الشارع الأعظم في شرقي بغداد كان في موضع الشارع الكبير الذي يشتق الجانب الشرقي من محلة عقد القشل الى محلة الصدرية المجاورة لمحلة باب الشيخ عبد القادر الجيلي المعروف بالكيلاني – ر ح – .

كان المأمون بخراسان مع والده ، فلما توفي والده هناك بويع المأمون بخراسان وبويع أخوه الأمين ببغداد وجرت الفتن العظيمة إلى أن قتل الأمين ـ رحمة الله عليه ـ ، فلما وصل البريد بخبر قتله إلى المأمون أرسل الحسن بن سهل خليفة له على العراق [1] ، لتدبير الأمور بها ، فوردها بعد انقضاء فتنة الأمين في سنة ثمان وتسعين ومئة ، ونزل القصر المأموني المذكور ، وتزوج المأمون بُوران بنت الحسن بن سهل بمرو ، بولاية عمّها الفضل بن سهل : فلما قدم المأمون من خراسان في يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر من سنة أربع ومائتين دخل إلى قصر الخلافة بالخلد بالجانب الغربي فسكنه ، وبقي الحسن بن سهل مقيما بالقصر المأموني إلى أن عمل عرس بوران بفم الصلح ونقلت إلى بغداد وأنزلت بالقصر . وطلبه الحسن من المأمون فكتبه له ، ومذ ذلك الوقت أضاف اليه ما حوله ، وغلب اسم الحسن عليه وعرف به ونسب اليه . ذكر أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد قال : حدثني بعض مشايخنا قال : لما بنى الحسن بن سهل قصره هذا جعل بين سوره وبين شط دجلة فضاء كبيراً ، فقيل له : لو جعلته راكباً على دجلة كان أحسن، فقال : ما أنا والنزهة والاشراف إلى دجلة !؟ إنما يفعل هذا أهل الفراغ والبطالة ونحن عن النزهة في شغل . ثم ابتاع الموفق بالله هذا القصر ونزله ثم هدمه المعتضد بن الموفق وبناه وزاد فيه ومدّه إلى حدّ [2] نهر بين ونزله المكتفي [3] » .

وقال الخطيب البغدادي : « ثم استضاف المعتضد بالله إلى الدار مما جاورها كل ما وسعها به وكبرها وعمل عليها سوراً جمعها به وحصنها ، وقام المكتفي بالله بعده ببناء التاج على دجلة وعمل وراءه من القباب والمجالس ما تناهى في توسعته وتعليته ، ووافى

---

(١) قال الجوهري في الصحاح : « والعراق بلاد بذكر ويؤنث وقيل هو فارسي معرب » .

(٢) يعني المؤرخ بمدى النهر بين ( على وزن تين ) فتح طريق تحت الارض ، وزج أي معقود السقف يؤدي الى قصره الجميل المعروف باسم الثريا المتصل بحي الوحوش .

(٣) جهات الائمة الخلفاء من الخرائط والاماء « ص ٧٢ — ٧٨ طبعة دار المعارف بمصر » .

المقتدر بالله فزاد في ذلك وأوفى مما أنشأه واستحدثه ، وكان الميدان والثريا وكذا حير الوحش متصلا بالدار[1] » وقد قدمنا ذلك ثم قال في ذكر جوامع بغداد : « فلم تكن صلاة الجمعة تقام بمدينة السلام إلا في مسجدي المدينة والرصافة إلى وقت خلافة المعتضد ، فلما استخلف المعتضد أمر بعمارة القصر المعروف بالحسني على دجلة سنة ثمانين ومائتين ، وأنفق عليه مالاً عظيما ، وهو القصر المرسوم بدار الخلافة ، وأمر ببناء مطامير في القصر رسمها هو للصناع ، فبنيت بناءاً لم ير مثله ، على غاية ما يكون من الاحكام والضيق ، وجعلها محابس للأعداء ، وكان الناس يصلّون الجمعة في الدار ، وليس هناك رسم لمسجد ، وإنما يؤذن للناس في الدخول وقت الصلاة ، ويخرجون عند انقضائها ، فلما استخلف المكتفي في سنة تسع وثمانين ومائتين نزل [2] القصر وأمر بهدم المطامير التي كان المعتضد بناها ، وأمر أن يجعل موضعها مسجد [3] جامع في داره ، يصلي فيه الناس ، فعمل ذلك وصاروا يبكرون إلى المسجد الجامع في الدار يوم الجمعة فلا يمنعون من دخوله ، ويقيمون فيه إلى آخر النهار ، وحصل ذلك رسماً باقياً إلى الآن [4] » توفي الخطيب سنة ٤٦٣ .

وقد أنشيء لهذا المسجد مئذنة وهي التي تعرف غالباً باسم المنارة ، وآخر منارة له هي هذه القائمة اليوم فيما بقي من المسجد المعروفة بمنارة جامع سوق الغزل المطلة على شارع الجمهورية المشتق في هذه الأيام ، وكانت قد جددت سنة « ٦٧٠ » في أيام الملك أباقا بن هولاكو الايلخاني وولاية علاء الدين عطا ملك الجويني إلا أنها سقطت ، ثم أعيد

(١) تاريخ بغداد ١ : ٩٩ .

(٢) في نسخة تاريخ الخطيب المطبوعة بمصر « ترك القصر » وهو ضد المراد والمعروف .

(٣) هو المسجد المعروف بجامع سوق الغزل في أيامنا وكان يسمى جامع القصر نسبة الى قصر التاج وجامع الخليفة نسبة إلى منشئه ثم سمي جامع الخلفاء ، وليس هـذا الجامع جامع الرصافة الذي أنشأه المهدي في الرصافة قرب تربة الامام الاعظم .

(٤) تاريخ بغداد ١ : ١٠٩ .

بناؤها على هذه الصورة الماثلة من الضخامة والقوة والمتانة والرصانة ، وإن تحيّفها الزمان ، وأثرت فيها الرياح والأمطار على اختلاف الأعصار ماتؤثره في أمثالها من البنيان ، من الآجر ومشتقاته لامن الحجر والصوان ، جاء في أخبار سنة « ٦٧٠ » ما هذا نصه :

« وفيها أمر علاء الدين صاحب الديوان بتجديد عمارة منارة جامع الخليفة ، وكان صدر الوقوف[1] يومئذ شهاب الدين علي بن عبدالله ، فشرع في ذلك ، وانتجزت في آخر شعبان ثم سقطت في شهر رمضان بعد فراغ الناس من صلاة التراويح ولم يتأذّ أحد ممن كان هناك[2] » .

وفي سنة ٦٧٨ تمّ تجديد عمارتها الحالية ، فقد جاء في أخبارها ما هذا نصه « وفيها تمت عمارة منارة عمارة جامع الخليفة ، وكانت قد سقطت في شهر رمضان سنة سبعين [ وستمائة ][3] » .

وقد ذكر هذا المسجد ومنارته العلامة الراحل السيد محمود شكري الآلوسي ـ رح ـ في كتابه تاريخ مساجد بغداد وآثارها قال : « كان هذا هو المسجد الجامع أيام الدولة العباسية[4] ... وكان مصلّى خليفة المسلمين من بني العباس ، ومصلاه يومئذ يسع جمعاً لا يحصون ، بعمارة تروق الناظر إحكاماً وصنعة ، وفيه مئذنة شامخة تناطح السحاب ، فلما دارت دوائر البلى على مدينة السلام انهدت أركانه ، واندرست رسومه وآياته ، ولم يبق

---

(١) يعني الأوقاف .

(٢) كتاب الحوادث الذي سماه المحقق الراحل يعقوب نعوم السركيسي « الحوادث الجامعة » وتابعته في ذلك ونشرته بذلك الاسم ثم تبين لي أنه غير الحوادث الجامعة وإن كانت التسمية تدعو الى ذلك الحسبان والظاهر لي أنه تاليف « محب الدين أبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن ابي بكر العلوي الكرجي ثم البغدادي المقرىء المؤرخ شيخ دار القرآن البشيرية على شاطيء دجلة بالجانب الغربي ، المتوفى ببغداد سنة ٧٢١ . ترجمه ابن الفوطي في كتابه تلخيص مجمع الآداب في المائة بمحب الدين من الأحمدين .

(٣) كتاب الحوادث المذكور ، ص ٤٠٨ .

(٤) يعني في القرن الثالث وما بعده .

منه إلا مئذنته التي بقيت تندب قومها وتبكيهم ، ثم صار هذا الجامع محلّة كبيرة وسوقاً واسعة تسمى ( سوق الغزل ) وبقيت عرصة خالية ، فعمر فيها أبو سعيد سليمان باشا والي بغداد في سنة ١١٩٣ مسجداً إبقاءاً لذكرى هذا المعبد الشهير وعيّن له مدرساً وإمامـــاً وجملة من الخدم [1] » . وقد اهتمت مديرية الأوقاف في هـذه الأيام ثم وزارتها الحاليـة بهذا الجامع المبارك فامتلكت بالشراء عدّة دور كانت قد اغتصبته أرض الجامع قديمـاً لتنشيء على أرضها مسجداً صغيراً يحفظ على هذا المعبد الاسلامي العظيم حرمته وكرامته وتاريخه الزاهي ، ونعم ما فعلت .

مصطفى جواد

(١) تاريخ مساجد بغداد وآثارها « ص ٣٩ ، ٤٠ » .